

SIATS Journals

Journal of manuscripts & libraries Specialized Research

(JMLSR)

Journal home page: http: //www.siats.co.uk



مجلَّة المخطوطات والمكتبات للأبحاث التَّخصصيَّة

المجلد1 ، العدد 2، أيار ، مايو 2017م.

e-ISSN: 2550-1887

ACHIEVING HERITAGE AND ITS ROLE IN REVIVING THE NATION'S MEMORY AND CONNECTING IT WITH ITS PAST

تحقيق التراث ودوره في إنعاش ذاكرة الأمة ووصلها بماضيها

د. خيرة غانم

جامعة . الشلف . الجزائر

Kghanem01@hotmail.coM

1438 هـ – 2017م

ARTICLE INFO

Article history:
Received 5/10/2016
Received in revised form 8/11/2016
Accepted 15/3/2017
Available online 15/5/2017
Keywords:
Insert keywords for your paper

ABSTRACT

Every nation has its heritage that witnesses its history and its different historical events, and all the cultural values that unite the nation, realizing its existence. Since our Arabic and Islamic heritage was the most important, it attracted various invaders who stole and falsified it, depriving the following generations from all its components associated with this heritage, and thus threatening our nation.

For that, we attempt to point out the importance of the heritage in general, and the Arabic and Islamic heritage, in particular, focusing on the manuscript because of its great necessity in the field of documentation, using the investigation which is so indispensable for the manuscript; as it is the only scientific means used to verify the credibility of the manuscript, excluding any distortion and counterfeiting. Hence, a veritable manuscript could witness a bright history and a brilliant civilization, of which the future generations would be proud



الملخص

لكل أمة تاريخ ، والشاهد على تاريخها والحقب الزمنية المختلفة التي مرّ بها هذا التاريخ هو ذلك التراث الذي تتوارثه الأجيال بعضها عن بعض، وتلك القيم الثقافية التي تتوحد بها الأمة وتحقق وجودها. لذلك كان تراثنا العربي والإسلامي محل اهتمام الغزاة وذلك بسرقته وتحريفه وفصل الأجيال المتعاقبة عن جميع مقوّماتها المرتبطة بهذا التراث، وهذا من أشد الأخطار التي تتهدد أمتنا .

لهذا سعيت في هذا البحث إلى إظهار أهمية التراث بشكل عام، والتراث العربي والإسلامي بشكل خاص، إلا أنني ركزت على التراث المخطوط لما له من أهمية بالغة في مجال التوثيق،وربطته بعلم التحقيق ؛ إذ لا غنى للمخطوط عن هذا العلم؛ لأنه الوسيلة العلمية الوحيدة التي يمكن التثبت بها من نسبة المخطوط وصحة ما جاء فيه، وتخليصه من التحريف والتزييف الذي قد يلحق به، ومن ثمّ إخراجه إلى النور ليكون شاهدا عدلا على تاريخ مشرق وحضارة راقية تعتز بها الأجيال وتبني عليها حاضرها ومستقبلها.



المقدمة :

الحمد لله الذي علّم بالقلم ،علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أشرف رسول ومعلّم، وعلى آله وصحبه والتابعين حاملي مشعل العلم إلى يوم الدين.

أمّا بعد، فإذا أردت أن تعرف قيمة الماضي بالنسبة إلى أيّ أمة أو شعب، فانظر في سياسة المستعمر واسأل: لماذا يحرص على طمس معالم تاريخ الشعوب التي يستحوذ عليها ؟ ولماذا يسرق ميراثها الفكري والثقافي؟ ذلك لأنه يعلم علم اليقين أن الماضي هو الدعامة التي يقوم عليها بناء الحاضر والمستقبل، وهو بالقضاء على ماضيها يكون قد قضى على حاضرها ومستقبلها.

لذلك سعى وما زال يسعى المخلصون من أبناء أمّتنا إلى البحث عن تراثهم والتنقيب عنه لإخراجه إلى النور.

وإن أهم أنواع التراث الذي ينبغي العناية به هو التراث المخطوط وهذا بتحقيقه وإزالة الشوائب عنه ؛ ذلك أنّ المخطوطات الأصيلة تعدّ بمثابة الشهود العدول على النتاج الفكري والحضاري للأمم والشعوب التي سطع نجمها في مراحل تاريخية مختلفة.

لهذا سعينا في هذا البحث إلى إظهار أهمية التراث بشكل عام، والتراث العربي والإسلامي بشكل خاص، ومدى حاجة المخطوط منه إلى استخراجه من غيابات الرفوف، والبحث عن الضائع واسترداد المنهوب، علّنا بذلك نحيي أمّتنا، ونربط أجيال الحاضر بماضيهم العتيق.

وقبل الخوض في هذه القضايا ومناقشتها يتوجب علينا تحديد مفهوم كلّ من التراث والتحقيق كما جاء في اللغة واصطلاح أهل العلم والفكر.

1. مفهوم التراث

التراث: من الأصل اللغوي: (ورث) ؛ لأن أصل التاء فيه واو، قال ابن الأعرابي : الورث والورث والإرث والوراث والإراث والتراث واحد[1].

(1) ابن منظور محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب ، بيروت، دار صادر، (د ت).، مادة: (ورث)



وقال الجوهري: تقول : ورثت أبي وورثت الشيء من أبي أرثه ، بالكسر فيهما ، ورثا ووراثة وإرثا ، الألف منقلبة من الواو ، ورثة ، الهاء عوض من الواو[2]

وذكر القرطبي أنّ أصل " التراث " الوراث من ورثت ، فأبدلوا الواو تاء كما أبدلوا الواو تاء في تجاه وتخمة وتكأة وتؤدة ونحو ذلك .[3]

والإِرْثُ من الشَّيْءِ البَقِيَّةُ من أَصْلِه والجمعُ إِراثٌ، وعن ابنُ الأَعْرابِيّ أنّ الإرْث في الحَسَبِ والوِرْث في المالِ [4].وقد ورد ذكر التراث في القرآن الكريم بمعنى الميراث، في قوله تعالى:

﴿ **وتأكلون التراث أكلا لما** ﴾[الفجر:19]أي يأكلون نصيب غيرهم من الميراث؛ لأنهم كانوا لايورّثون النساء والصبيان[5].

وقد يأتي الميراث بمعنى العلم كما في حديث الرسول . صلى الله عليه وسلم .

" وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[6].

وقد جاء الميراث أيضا بمعنى النبوة، في نحو قوله تعالى:

﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5)يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا(6) ﴾ [مريم] فالميراث هنا بمعنى النبوة والعلم المتعلق بالنبوة والدعوة إلى الله [7].

---

(2) الجوهري إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. بيروت . دار العلم للملايين، ط: الرابعة ، 1990م.، (مادة: ورث)

(3) القرطبي محمد بن أحمد ،الجامع لأحكام القرآن ، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر.2002م .. 47/20.

(4) ابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم ، ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، 2000م ،الطبعة:1.، مادة:(ورث)

(5) ينظر البغوي، الحسين بن مسعود ، تحقيق: محمد عبد الله وآخران، الرياض ، دار طيبة للنشر(د ت). 422 /8.

(6) أبو داود ،سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية،2009م.، 3641.

(7) ينظر تفسير ابن كثير 212/5، وتفسير البغوي، 219/5.



وأمّا التراث بالمعنى المصطلح عليه، فقد تعدّدت حوله التعريفات، وذلك لاتّساعه وشموله لكثير من الجوانب ونذكر من هذه التعريفات:

1) التراث هو: كلّ ما خلّفه السَّلف من آثار علميّة وفنية وأدبيّة ، سواء مادِّيَّة كالكتب والآثار وغيرها ، أو معنوية كالآراء والأنماط والعادات الحضاريّة المنتقلة جيلاً بعد جيل ، مما يعتبر نفيسًا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه،ومنه: التُّراث الإسلاميّ ، والتراث الثَّقافيّ، والتراث الشَّعبيّ ، وغير ذلك[8].
2) التراث هو " تلك الحصيلة من المعارف والعلوم والعادات والفنون والآداب والمنجزات المادية التى تراكمت عبر التاريخ . وهو نتاج جهد إنسانى متواصل قامت به جموع الأمة عبر التاريخ ، وعبر التعاقب الزمنى أصبحت هذه الحصيلة المسماة التراث تشكل مظاهر مادية ونفسية ونمطاً فى السلوك والعلاقات وطريقة فى التعامل والنظر إلى الأشياء[9]. "

وهذان التعريفان بالإضافة إلى تعريفات أخرى لم نذكرها، كلّها تصبّ في أنّ التراث معناه ما تتوارثه الأجيال بعضها عن بعض من أمور مادية ومعنوية تكون دليلا وشاهدا على الحقب الزمنية المختلفة التي يمر بها تاريخ الشعوب.

ولعلّ هذا التداخل بين التراث والتاريخ هو الذي دفع بعضهم إلى التمييز بينهما، كما جاء في الموسوعة الفلسفية: " ويختلف التراث عن التاريخ على الرغم من أن كلاً منهما متعلقٌ بالماضي. فإذا كان التاريخ هو الماضي في بُعده التطوري، فإنّ التراث هو الماضي في بعده التطوري موصولاً بالحاضر ومتداخلاً معه ومتشابكاً به، ويشكّل التاريخ حوار الماضي مع الحاضر عبر التراث، حواراً يكون فيه زمام المبادرة للحاضر الذي يتشابك فيه الماضي بالمستقبل" [10].

(8) عبد الغني أبو العزم، معجم الغني الزاهر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ، ط : 1، 2013م.، مادة: (تراث).

(9) محمد محفوظ ،وقفات أولية في منهجيات قراءة التراث، ، موقع التجديد العربي.

(10) معهد الإنماء العربي، الموسوعة الفلسفية العربية، ، ، بيروت: 1988م ." تراثية" 2/ 310.



مفهوم التحقيق:

التحقيق : هو من الأصل الثلاثي : حقّ يحق حقا وحقوقا ، قال ابن فارس: " الحاء والقاف أصل واحد ، وهو يدل على إحكام الشيء وصحّته ، فالحق نقيض الباطل ، ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج وحسن التلفيق" [11].

وحقّ الأمر أي ثبت، وحُقه يُحقه أثبته وصار عنده حقا[12].

وحققت الأمر وأحققته، إذا تحقّقته وصرت منه على يقين، وتحقّق عنده الخبر أي صحّ، وكلام محقّق أي رصين[13].

وأمّا "التحقيق" في الاصطلاح المعاصر فيقصد به بذل عناية خاصة بالمخطوطات حتى يمكن التثبت من **استيفائها لشرائط معينة**[14].

و الكتاب المحقق هو الذي صحّ عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه ، وكان متنه أقرب ما يكون إلي الصورة التي تركها مؤلفه.

لذلك فإن الجهود التي تبذل في تحقيق المخطوطات ينبغى أن تركز على الجوانب الآتية:

1. تحقيق عنوان الكتاب.
2. تحقيق اسم المؤلف.
3. تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه.
4. تحقيق متن الكتاب حتى يظهر بقدر الإمكان مقاربا لنص مؤلفه. [15].

ولا يختلف تعريف مصطلح " التحقيق " عن تعريف علم التحقيق في حدّ ذاته؛ لأنّه: "علم يبحث فيما تركه السّلف مكتوبًا وإعادة نشره بشكل واضح ومنظّم وموثّق"[16].

(11) أحمد بن فارس،معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م، 15/2.

(12) ابن منظور، لسان العرب ،م س، مادة (حقق).

(13) الصحاح للجوهري،م س، مادة (حقق).

(14) ينظر عبد السلام هارون،تحقيق النصوص ونشرها ، مؤسسة الحلبي، ط:الثانية، 1965م. ،ص: 39.

(15) ينظر م نفسه.

(16) معجم الغني الزاهر ، م س، مادة: (تراث).



أهمية تحقيق التراث:

إنّ أهمية التحقيق جزء لا يتجزأ من أهمية التراث، ذلك أنّ نقل التراث إلى الأجيال المعاصرة ليس بالأمر الهيّن؛ إذ أن أخطارا كثيرة تعترض سبيل وصوله صحيحا غير محرّف أو منقوص. وبخاصة إذا تعلّق الأمر بالتراث العربي والإسلامي.

يقول أكرم ضياء العمري " إن عملية نقل التراث إلى الأجيال المعاصرة ليست سهلة، فإن احتمال التحريف المتعمّد للقيم التراثية يعتبر من أبرز الأخطار التي اقترنت بما تم في هذا المجال؛ بسبب الغزو الثقافي الذي تعرضت له أرض الحضارة الإسلامية، والذي أدى إلى إحلال قيم ثقافية جديدة تتصل بالحضارة الغربية ولا ترتكز إطلاقاً على جذورنا الثقافية "[17].

أجل إنّ الغزو الثقافي الذي تتعرض له أمّتنا يجعل على رأس أولوياته فصل الأجيال المعاصرة عن تراثها وتاريخها وجميع مقوّماتها. يؤكد هذا الأمر كثير من تصريحات القادة الاستعماريين، وزعماء التبشير في الوطن العربي والإسلامي.

فهذا "روفيجو" وهو أحد قادة الاستعمار الفرنسي في الجزائر يقرر:" إنّ إيالة الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلاّ بعدما تصبح لغتنا لغة قومية فيها، وحتى تتأقلم فيها الفنون، والعلوم التي يقوم عليها مجد بلادنا. إنّ السماء التي تغطي الأرض الإفريقية، هي سماء الشعر والأدب، وذكاء العرب لا يمكن أن يكون موضع شك... والمعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية تدريجيا، ومتى كانت اللغة الفرنسية لغة السلطة والإدارة، فإنها لا تلبث أن تنتشر بين الأهالي، ولا سيّما إذا وجدت مدارسنا إقبالا من الجيل الجديد" [18].

وأمّا المبشر النصراني "زويمر" فيقول بمناسبة عقد المبشرين مؤتمرهم التبشيري سنة 1935م: " إنّكم أعددتم نشأ في بلاد المسلمين، لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده الاستعمار المسيحي، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همّه في دنياه إلاّ في الشهوات "[19].

(17) أكرم ضياء العمري، كتاب التراث والمعاصرة، ، http://library.islamweb.net/newlibrary/umma.php

(18) إسماعيل العربي الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، ، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب.ص: 10.

(19) مجلة العربي، نهضة الشعوب وعلى إي أساس تقوم، عبد المنعم النمر، العدد: 145، 1970م



وإذا كانت هذه هي مخطّطات أعداء الدين والأمة، فكيف لا تكون حاجتنا إلى التراث ماسّة، وهو يمثّل الهويّة الثقافية للأمة، بما تتضمنه من دين ولغة وأخلاق ، وعادات وتقاليد.

فأمّا الدين فهو الركن الأساس الذي قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية، لأنّها قامت على التوحيد ، وعلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فكانت مراقبته تعالى حاضرة في كل عمل وفي كل إنجاز،أضف إلى ذلك أنّ الإسلام جعل التأمل والتفكر في ملكوت الله من صميم العبادة ، الأمر الذي دفع بالعلماء المسلمين إلى ممارسة هذه العبادة للتعرف أكثر على خالق الكون وخالقهم ، والكشف عن عظمته سبحانه وتعالى من خلال عظمة خلقه.

. قال تعالى. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

بل إن الإسلام ربط العلم بتقوى الله وخشيته؛ لأن العالم الحقيقي هو الذي يتقي الله في علمه وفي الناس الذين تصلهم ثمار هذا العلم. فلا يسعى إلا فيما هو صالح للإنسان والإنسانية.

قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) ﴾[فاطر] .

وهذه الخاصية التي تميّز بها الإسلام وهي ربطه بين الإيمان و الفكر والعمل، هي التي فجّرت طاقات الإبداع في أتباعه، فنبغوا في كل العلوم الدينية منها والمد نية، فكانت أساسا لبناء حضارة مادية وروحية خالدة،لأنها كانت حضارة الأخلاق والمبادئ السامية، حضارة العدل والتسامح التي استقطبت الشعوب في كل مكان ، فكانوا يهرعون إليها ليندمجوا مع أهلها ويشاركوهم في السمو بها إلى أرقى الدرجات في زمن قياسي قصير جدا. في الوقت الذي كانت أوروبا ترفل في قيود التخلف والاضطهاد الذي مارسته الكنيسة على المسيحيين بشكل عام وعلى العلماء بوجه خاص، لأنّ العلم يضر بمصالح رجال الدين الذين تعودوا على استغفال الناس والاحتيال عليهم لنهب أموالهم باسم المسيحية المحرفة ، وببيع صكوك الغفران الذي كان تجارة رائجة درّت على رجال الكنيسة أموالا طائلة، فكيف يسمحون ، والحال هذه، لعالم يفسد عليهم تجارتهم، وينبّه الرعية المطيعة إلى خطر التخلف الذي تفرضه عليهم الكنيسة؟



وهذا ما جعل نهضة أوروبا تتأخرعشرة قرون كاملة، ذلك أنّ أوّل ظهور للعلم والعلماء كان في القرن السادس عشر الميلادي، وليت هذا الظهور مرّ بسلام، بل إن صاحبه وهو الفلكي "كوبرنيكس "(ت1543م) الذي اكتشف دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، قد تعرّض لاضطهاد الكنيسة وتكفيرها له بسبب اكتشافه هذا، كما حرقت كتبه، وأبحاثه، ولم يتعرّف الناس على ما توصل إليه من اكتشاف إلا في القرن الثامن عشر الميلادي[20].

وهذا الذي حدث لأوروبا هو ما جعلها تحمل الحقد والضغينة للمسلمين، لأنّ دينهم الإسلامي السمح أتاح لهم كلّ أسباب السعادة الدنيوية والأخروية، بخلاف المسيحية المحرّفة التي ظلمتهم، وحرمتهم من أبسط حقوق الحياة، ومن ثمّ كان لزاما عليها، بعد أن تخلّصت من قيودها، محاربة هؤلاء الذين تفوّقوا عليها بدينهم قبل أيّ شيء آخر.

نكتشف هذا في تصريحات زعمائهم الكثيرة، يقول غلادستون –وزير المستعمرات البريطاني سنة 1895 ، ثم رئيس الوزراء– : " ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي في أمان "[21] .

و يقول أيضا : " لن تحقق بريطانيا شيئا من غاياتها في العرب، إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب، أخرجوا سر هذا الكتاب –القرآن– مما بينهم، تتحطم أمامكم جميع السدود "[22]

فهذا إذن هو موقف الغرب من الإسلام ومن القرآن، وهو ميراث سماوي لا يُخشى من أن تطاله أيديهم النجسة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي تعهّده بحفظه﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[الحجر:9]

وإنّما الخوف كل الخوف على ما دون ذلك من عناصر الهوية الإسلامية ؛ لأنّ هؤلاء الأعداء لا يختلفون عن الشيطان الذي حذّر منه الرسول . صلى الله عليه وسلم . حين قال: " **إنَّ الشَّيطانَ قَد يَئسَ أن يُعبَدَ بأرضِكُم ولكنْ رضِيَ أن يطاعَ فيما سِوى ذلكَ مما تَحاقَرون من أعمالِكُم "[23]** .

---

(20) ينظر محمد عمارة، الدين والحضارة عوامل امتياز الإسلام، ، مكتبة الشروق الدولية،ط:1، 2005م. ص:23

(21) جمال سلطان، الغارة على التراث الإسلامي، ، مكتبة السنة، الطبعة الأولى، 1990م

. ص: 91، الهامش رقم: 1.

(22) أحمد عمران، القراءة المعاصرة للقرآن في الميزان، ، ص: 17.

(23) . المنذري زكي الدين عبدالعظيم، الترغيب والترهيب ،تح: محمد السيد : – دار الفجر للتراث – القاهرة – الطبعة :الأولى1421هـ،61/1.



وإنّ هؤلاء قد يئسوا من أن ينتزعوا القرآن من صدور المسلمين، لكنهم رضوا بما دون ذلك من عناصر الهوية الإسلامية لكي يحاربونا من خلالها، وهي تتمثل، كما أسلفنا، في اللغة والأخلاق وما يتصل بهما من عادات وتقاليد.

فأمّا اللغة، والمقصود بلا شكّ اللغة العربية، لغة القرآن ، ولغة النبيّ العدنان، فإنّها صورة وجود الأمّة ، وهي أهم عناصر التراث، لأنها وسيلته الأساسية في انتقال التراكمات المعرفية من جيل إلى جيل، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تحلّ لغة أخرى محلّ اللغة القومية للإطّلاع على ميراث الأجداد، لذلك حرص الاستدمار الحديث على ضرب تراثنا من خلالها، وذلك بأن أشاعوا بين العرب فكرة أنّ العرب لا يمكنهم النهوض من كبوتهم، واللحاق بركب الحضارة الغربي إلاّ إذا تخلوا عن لغتهم العربية، وتبنوا لغة المستدمر؛ لأنها .كما يزعمون . لغة العلم والحضارة.

والحقيقة خلاف ذلك تماما، إنه سحر العربية وجمالها، وارتباطها بأعظم مصدرين للشريعة الإسلامية، هو ما دفع بأعدائها لترويج الإشاعات عنها.

فها هو الرافعيّ مأخوذا بسحر لغته يقولُ: « إنّ هذه العربيَّة بُنيَتْ على أصلٍ سحريّ يجعل شبابها خالدًا عليها ، فلا تهرم ولا تموتُ ؛لأنّها أُعِدَّتْ من الأزَلِ فلكًا دائِرًا للنيّرين الأرضيين العظيمين : كتاب الله ، وسنة رسوله؛ ومن ثَمَّ كانت فيها قُوَّةٌ عجيبةٌ من الاستهواء ، كأنّها أخذةُ السِّحر ،لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع »[24] .

وقد تعدى الإعجاب باللغة العربية حدود المنتمين إليها ليأسر قلوب الأعاجم الدارسين لها.

يقول المستشرق الفرنسي رينان : « من أغرب المدْهِشات أن تنبتَ تلك اللغةُ القوميّةُ، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمّةٍ من الرُحّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرةِ مفرداتها ودقّةِ معانيها وحسنِ نظامِ مبانيها، ولم يُعرف لها في كلّ أطوار حياتها طفولةٌ ولا شيخوخةٌ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعرف شبيهاً بهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملةً من غير تدرّج وبقيت حافظةً لكيانها من كلّ شائبة»[25].

ولما كانت اللغة العربية على هذه الدرجة من التميّز، وعلى هذا المستوى من تعلق الأمة الإسلامية بها، كان لابد للطامعين في ميراثها من محاصرتها، والعمل على التقليل من شأنها؛حتى ينصرف أهلها عنها ، وبانصرافهم عنها ينصرفون عن كل ما من شأنه أن يربطهم بماضيهم، ويؤسس لمستقبلهم. يقول الرافعي :

---

(24) مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن ، المكتبة العصرية بيروت . ، ص:31 .

(25) مجلة اللسان العربي، مكتب جامعة الدول العربية، الرباط، العدد 24 .،ص:85 .



" ما ذلت لغة شعب إلا ذلّ، ولا انحطّت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد: أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا، وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع» "[26] .

وقد يكون هذا أهون الضررين؛ لأنّ الأخطر منه أن يُجرَّم من يستعمل لغته العربية، أو يسعى في تعليمها لأبناء وطنه؛ إذ في هذه الحال يكون الكيد لمقومات الأمة قد بلغ مداه، الأمر الذي يؤدي إلى سقوط الأقنعة ، وقد لجأت فرنسا إلى هذا الحل في محاولاتها للقضاء على الهوية الجزائرية، فأصدرت قانونا جائرا يقضي بمنع تعليم اللغة العربية, يقول الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس بهذا الشأن:

«ها هو ذا العزيز المفدى قد كشف في محاربته القناع،وأحيط به من كل جانب،ودبرت له المكائد، ثم رمي بقانون الثامن مارس المشؤوم[27]،ذالكم القانون الذي شاهدتم أثره في المدارس والمكاتب المغلقة،وأفواج الصبيان والصبيات المشردة، وفي وقفات المحاكم التي وقفتموها، والمغارم التي دفعتموها، والسجون التي دخلتموها، أشهد أنه لم ترم الجزائر المسلمة بمثل هذا السهم على كثرة الرمي،وتفنن الرماة. فقد كان كل ما أصابها هو في بدنها، وفي غير معقد البقاء منها، أما هذا السهم فهو في روحها، في صميم فؤادها في مصدر حياتها»[28].

هذا بالنسبة للغة ، أمّا الأخلاق ، وهي مقوم آخر لا يقل أهمية عن سابقيه، سواء من حيث ارتباطها بتكوين شخصية الإنسان، أم من حيث كونها ميراثا يرثه الخلف عن السلف، ويعمل على الحفاظ عليه بكل فخر واعتزاز. كما عبّر عن ذلك عمرو بن كلثوم حين قال:

وَرِثْنَا المجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدّ   نُطَاعِنُ دُوْنَهُ حَتَّى يَبِيْنَا

وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ   وَنُوْرِثُهَا إِذَا مُتْنَا بَنِيْنا

---

(26) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم ، ، دار المعارف، ط2، 1982م.، 33/3.

(27) يقصد قانون منع تعليم اللغة العربية الذي صدر في الثامن مارس من سنة 1939م,

(28) مجلة البصائر الجزائرية، قانون الثامن مارس المشؤوم،الشيخ عبدالحميد بن باديس، ، العدد : 145 ، 1939م. ،



فقبل أن تتوارث أمّتنا العلم تتوارثت الأخلاق التي ميّزتها عن باقي الشعوب والأمم، فقد اشتهرت بالكرم وحسن الضيافة، وبالشجاعة والذود عن المحارم، وبالوفاء وحفظ العهود، وغير ذلك من القيم التي رسّخها الإسلام بعد ذلك ، وجعلها قواعد يقوم عليها الإسلام والإيمان، فالمسلم هو ذلك الإنسان المسالم الذي لا يؤذي غيره،ولا يظلمه ، ولا يكذب ولا يغش، ولا يشهد الزور، ولا يخون العهد، ولا يقرب الفاحشة، وهو الذي يصل رحمه ويحسن إلى جاره، ويسعى في حاجة المعوز والمكروب، ويؤثر غيره على نفسه، وهو الذي يحسن معاملة الناس، فيرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويجل العالم، وهو الذي يبر والديه ويحفظ حقوق زوجه وأبنائه.

وقد ضرب المسلمون من سلفنا الصالح أروع الأمثلة في هذه الأخلاق. ولم نكن لنتعرّف على تلك النماذج البشرية الرائعة لولا اهتمام السلف بميراثهم الأخلاقي ، إذ لم يدعوا شيئا في باب السير والأخلاق إلاّ جمعوه واعتنوا بتصنيفه ليقدّموه زادا مهما للأجيال ، وكان على رأس هذه السير، سيرة حبيبنا محمد ـ صلى الله عليه وسلّم ـ التي تناولوها بغاية التفصيل والتدقيق، حتى يتهيأ لك أنّك تراه ـ صلى الله عليه وسلّم ـ أوتعيش معه.

غير أنّ أعداء أمّتنا لا يعجبهم أن نتحلّى بأخلاق القرآن ، ولا أن نقتدي بسيرة خير الأنام، بل إنّ ذلك يزعجهم أيّما إزعاج، لذلك عملوا بكل تفانٍ لنزع لباس الأخلاق عن أجيال الحاضر، وذلك بالحيلولة بينهم وبين قدوتهم من رجال السلف،ونسائه. حتى أصبح أبناء الإسلام أنفسهم يشكّكون في الأخلاق الإسلامية، فقد غدت الفاحشة بالنسبة لهم من الحريات الشخصية، وأضحى الربا فائدة مستحقة، وبات الحرص على عفّة المرأة ظلما لها، وهضما لحقوقها، وغير ذلك من مظاهر التفسّخ الأخلاقي التي لا يمكن حصرها.

وإذا كان هذا هو حالنا بابتعادنا عن تراثنا، فلا شكّ أنّ الخروج من الأوضاع البائسة التي فرضت علينا أو فرضناها على أنفسنا، لا يكون إلاّ بإحياء التراث والارتماء في أحضانه.

ضرورة إحياء التراث

لقد باتت عودة المسلمين إلى تراثهم ضرورة ملحة في ظل الهيمنة الثقافية العالمية التى جردتنا من كلّ مقوّماتنا الفكرية والثقافية؛ لأننا أصبحنا مغلوبين على أمرنا ، نتبع غالبنا في كل ما يخطّط لنا. وما زاد الطين بلّة أن حكومات الدول العربية والإسلامية هي من يساعد أعداء أمّتنا وينفذ لهم مخططاتهم، ولنأخذ على سبيل المثال : اللغة، أليست حكوماتنا هي التي تصر على إبقاء اللغات الأجنبية سيدة في أوطاننا بينما تُعامل لغة القرآن على أنّها خادمة؟!



أليست حكوماتنا هي التي تدعم فكرة الاستعمار بأنّ اللغة العربية عاجزة عن استيعاب العلوم ، لذلك نجدها تحرص على تدريس العلوم والتكنولوجيا في مدارسها وجامعاتها بلغة المستعمر؟! بل إنّ حكّامنا لا يشعرون بالفخر والاعتزاز إلاّ إذا تحدثوا بلغة المستعمر؛ لأنها في تفكيرهم القاصر رمز الحضارة والرقي، أمّا لغتهم القومية فهي من التراث البالي الذي يرمز للتخلف والانحطاط.

فيا عجبا مما يصنع حكامنا! إنّ هذا لهو التخلف بعينه ؛ لأنّ الشخصية التي يمثلونها لا تمت إلى الحضارة بصلة؛ ذلك أنها لم تبنَ على ثوابت الأمّة وخصائصها الحضارية المتوارثة.

« فالشخصية القومية الحضارية [كما يقول إبراهيم الحيدري] لا تولد في الحاضر وليست لها حقبة زمنية معينة، وإنما هي وليدة إرث أجيال متعاقبة عبر التاريخ وعبر تجارب وخِبر وأفكار تلك الأجيال. ولذلك فالتراث الحضاري هو العامل الأساسي في وحدة الأمة وبقائها واستمرارها، وهو الوسط الذي تنمو فيه الشخصية الحضارية وتترعرع»[29].

ثمّ كيف للعلوم أن تزهر وتؤتي ثمارها إذا كانت تُدرس بلغة غريبة لا تنسجم مع فكر الإنسان وتوجهه الثقافي؟ إن استبدال وسيلة نقل المعرفة وهي اللغة ، بوسيلة أخرى، يؤدي بالتأكيد إلى بطء في الفهم، وصعوبة في تبادل المعلومات، ومن ثمّ يكون العجز عن الإبداع.

وقد تبذل الحكومات الخادمة للاستعمار جهدا إضافيا لتجعل مواطنيها يتقنون لغة المستعمر، وذلك بإرسال البعثات العلمية إلى موطن تلك اللغة، ليتشبع الطلبة بأفكار هؤلاء القوم، ويتغذون بثقافتهم، وحينئذ تحدث القطيعة بينهم وبين ميراث أمّتهم؛ لأنّ ولاءهم لن يكون إلاّ للقوم الذين يتحدثون بلغتهم كما عبّر عن ذلك الرافعي حين قال: «فاللغات تتنازع القومية، ولهي والله احتلال عقلي في الشعوب التي ضعفت عصبيتها ، وإذا هانت اللغة القومية على أهلها، أثرت اللغة الأجنبية في الخلق القومي ما يؤثر الجو الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه »[30].

وعليه ، فإنّ مجتمعاتنا كلّها مريضة وعليلة بما أصابها من الجو الأجنبي، ولا سبيل للشفاء إلا بالخروج من هذا الجو، وذلك

---

(29) الموسوعة الفلسفية العربية ،245/1.

(30) وحي القلم ، 33/3.



بربط الأجيال بلغتهم وتراثهم ، وإن اعتزازهم بلغتهم هو الذي يقوي عصبيتهم لتراثهم، كما أنّ إقبالهم على تراثهم يزيد من تمسّكهم بلغتهم؛ إذ بهذا الإقبال على التراث يكتشفون أن أجدادهم كانوا علماء وباحثين، وقد كانت اللغة العربية هي وسيلتهم في البحث العلمي الذي توصلوا فيه إلى النتائج المذهلة التي بُهر بها الأعداء وحرصوا على نقلها و الاستفادة منها.

ولم تكن اللغات الأخرى إلاّ خادمة مساعدة لهؤلاء العلماء على نقل معارف الحضارات السابقة التي انتقوا منها ما يتفق ودينهم ومبادىء شريعتهم.

وهذه الغاية التي ينبغي أن يؤمن بأهميتها جميع الأطراف، لا تتحقق إلاّ بتكاثف الجهود، جهود المثقفين والباحثين، وكل من بيدهم زمام الأمور.

فأمّا الباحث فدوره التنقيب عن التراث وإخراجه إلى النور، وما أكثر التراث الضائع الذي عبثت به الأيادي الأجنبية، أو استولت عليه كما استولت على باقي ممتلكات الشعوب، وحملته إلى عواصمها، وأثرت به متاحفها، وبخاصة المخطوطات، حتى بات المالك الحقيقي للمخطوط لا يمكنه الاطّلاع عليه إلا بترخيص من هؤلاء الأجانب، لكن ومهما يكن من شعور بالمهانة إزاء هذه المواقف إلاّ أن مصلحة الأمة تقتضي أن تتعرّف الأجيال على تراثها من هذه المخطوطات المسروقة والمهرّبة، وقد بلغ عددها الملايين موزعة بين الدول الاستعمارية ، ودول أخرى استطاعت أن تنال نصيبها من ثروتنا الثقافية، وسنذكر فيما يأتي

بعض الإحصاءات المتعلقة بالمخطوطات العربية في هذه الدول[31] .

. فرنسا: 7200 سبعة ألاف ومائتا مخطوط عربي.

. إسبانيا: ما يقارب 4000 أربعة ألاف مخطوط عربي.

. ألمانيا : ما يقارب 15200 خمسة عشر ألفا ومائتي مخطوط عربي.

. بريطانيا: ما يزيد على 12500 اثني عشرألفا وخمسمائة مخطوط عربي.

(31) ينظر جيوفري روبير المخطوطات الإسلامية في العالم، ، ترجمة وتحقيق: عبد الستار الحلوجي، و مجلة الوحدة "المخطوطات العربية في باريس" مخلوف ، أوراس،. العدد11 ، 1985. ص 65-80.



فهذه عينة فقط من الدول الاستعمارية، وما حوته مكتباتها ومتاحفها من مخطوطات عربية، ناهيك المخطوطات الإسلامية التي كتبت بلغات أخرى غير العربية وهي كثيرة أيضا في مثل هذه الدول وغيرها.

فمهمة الباحث إذن، هي الحصول على هذه المخطوطات وتحقيقها وتقديمها للقارئ العربي والمسلم، ليتقرب من تراثه، ويتعرّف على سلفه، ويكتشف أسرار أمّته التي مكّنتها من الارتقاء إلى عنان السماء قبل أن يأفل نجمها. فبهذا يكون الباحث المختص في مجال التراث قد أدّى ما عليه تجاه أمّته والأجيال الممثلة لحاضر هذه الأمة ومستقبلها.

وأمّا ولاة الأمور فإنّ مسؤوليتهم في هذا المجال أكبر بكثير من مسؤولية غيرهم؛ لأنّ ضياع المخطوط يقع عليهم، والتأخر في البحث عنه وتحصيله وتحقيقه يقع عليهم أيضا، كما تقع عليهم نتيجة هذا التقصير المتمثلة في ضياع الأجيال وانفصالها عن ماضيها.

وإنّ ما نشاهده اليوم من ولاة أمورنا لا يبشّر بخير، ذلك أنّهم لا يبالون بموضوع التراث، ولا يحرّكون له ساكنا؛ إذ لو وقفت شعرة واحدة في رؤوسهم خوفا على ميراث أمتهم، لسعوا في استرجاع الضائع منه، ولوقفوا إلى جانب الغيورين على أصالتهم من الباحثين والمثقفين، وبذلوا لهم ما يحتاجون إليه ليؤدوا مهمتهم على أكمل وجه. لكنّهم مع كل أسف، عاجزون متقاعسون، لا يهمّهم أن تبقى بلدانهم متخلّفة، ما داموا هم في شغل بمناصبهم.

وإن أقرب مثال يمكن أن نقدّمه في هذا السياق هو مثال الجزائر، التي كادت تبتلعها الصليبية لولا لطف الله بشعبها المتعلق بدينه وأصالته، ومع ذلك وبعد خروج فرنسا من الجزائر، لم يشعر الجزائريون بأنّ شيئا قد تغيّر؛ إذ بقيت الأوضاع على حالها، نبحث عن الكتاب باللغة العربية فلا نجده، ونسعى للحصول على كتب من التراث فلا نفلح في مسعانا، حتى بتنا نعتقد أنّ فرنسا قد جرّدتنا فعلا من كلّ تراثنا، ولم تبق لنا شيئا يربطنا بماضينا. غير أنّ الأمر لم يكن كذلك ؛ لأنّ المناطق الجزائرية النائية عن معسكرات العدو كانت خزائنها ملأى بالتراث المخطوط ؛ إذ بلغت المخطوطات العربية التي عثر عليها في الجزائر ما يقارب خمسة ألاف وثلاثمائة 5300 مخطوط موزعة بين المكتبات الخاصة والزوايا التي كان لها دور جبار في مواجهة الاستعمار الثقافي، والحفاظ على الهوية العربية والإسلامية للجزائر. يضاف إلى هذا العدد مجموعة أخرى من المخطوطات باللغات العربية والبربرية والتركية والفارسية تحتفظ بها المكتبة الوطنية ويبلغ عددها ما يقارب ثلاثة ألاف وستمائة 3600 مخطوط[32].

(32) جيوفري روبير، المخطوطات الإسلامية في العالم، 2/469،490.



وبعد، أفلا يستحق هذا التراث أن يعنى به ؟ أفلا يليق به أن يتجاوز في تحقيقه مرحلة الجهود الفردية، إلى الجهود الجماعية المنظمة ؟ وإلى متى تبقى المخطوطات القليلة المحققة حبيسة رفوف المكتبات الجامعية، فلا ينفق على طباعتها ولا نشرها؟ ولماذا يبقى المواطن العربي والمسلم مفصولا عن ماضيه وهو أقرب ما يكون إليه؟

تلك هي المعضلة التي نعيشها في أوطاننا العربية والإسلامية التي ما زالت مستعمرات ثقافية يعبث فيها الغرب كيف يشاء. غير أننا نأمل أن يأتي اليوم الذي يستفيق فيه هؤلاء من غيبوبتهم، ليعلموا أنّ نهوض الأمة العربية والإسلامية إنّما هو مرهون بمدى تمسّكها بتراثها وسعيها في تحقيقه والاستفادة منه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

قائمة المصادر والمراجع:

- . ابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم ، ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، 2000م ،الطبعة:1.
- . المنذري زكي الدين عبدالعظيم، الترغيب والترهيب ،تح: محمد السيد : – دار الفجر للتراث – القاهرة –الطبعة :الأولى1421هـ.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسيرالقرآن العظيم، تحقيق:سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للطباعة والنشر.
- ابن منظور محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب ، بيروت، دار صادر، (د ت).
- أبو داود ،سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية،2009م.
- أحمد بن فارس،معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.
- إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، ، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب.
- أكرم ضياء العمري، كتاب التراث والمعاصرة، ، http://library.islamweb.net/newlibrary/umma.php
- البغوي، الحسين بن مسعود ، تحقيق: محمد عبد الله وآخران، الرياض ، دار طيبة للنشر(د ت).



- جلال العالم،.قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، الطبعة الأولى:1395هـ
- جمال سلطان، الغارة على التراث الإسلامي، ، مكتبة السنة، الطبعة الأولى، 1990م
- الجوهري إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. بيروت . دار العلم للملايين، ط: الرابعة ، 1990م.
- جيوفري روبير، المخطوطات الإسلامية في العالم، ، ترجمة وتحقيق: عبد الستار الحلوجي،:مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن، 1997م
- عبد السلام هارون،تحقيق النصوص ونشرها ، مؤسسة الحلبي، ط:الثانية، 1965م.
- عبد الغني أبو العزم، معجم الغني الزاهر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ، ط : 1، 2013م.
- فؤاد سزاكين ، تاريخ التراث العربي، المخطوطات العربية في مكتبات العام، ، ترجمة محمود حجازي، جامعة بن سعود، الرياض، 1991م.
- القرطبي محمد بن أحمد ،الجامع لأحكام القرآن ، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر.2002م .
- مجلة البصائر الجزائرية، قانون الثامن مارس المشؤوم،الشيخ عبدالحميد بن باديس، العدد : 145 ، 1939م.
- مجلة العربي، نهضة الشعوب وعلى أي أساس تقوم، عبد المنعم النمر، العدد: 145، 1970م
- مجلة اللسان العربي، مكتب جامعة الدول العربية، الرباط، العدد 24 .
- مجلة الوحدة ،المخطوطات العربية في باريس" مخلوف أوراس،. العدد11 ، 1985.
- محمد عمارة الدين والحضارة عوامل امتياز الإسلام، ، مكتبة الشروق الدولية، ط:1، 2005م.
- محمد محفوظ وقفات أولية في منهجيات قراءة التراث، ، موقع التجديد العربي.
- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن ، المكتبة العصرية بيروت .
- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم ، دار المعارف، ط2، 1982م.
- معهد الإنماء العربي، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت: 1988م .

